الفصل التاسع

فلسفة الحياة والموت في المسرح الإغريقي

الموت والعالم الآخر هو الموضوع الذي نكرس له هذه الدراسة ونعالجه تفصيلاً من خلال هذا الفصل، لكننا نود هنا أن نستخلص بعض الآراء التي وردت في التراجيديا الإغريقية حول الموت.

الموت في حد ذاته كريه، والخوف منه من أبرز العوامل التي شكلت اللاهوت الإغريقي. ولقد ظهر الخوف من الموت في كل ما خلفه الإغريق من شعر ملحمي وغنائي ومسرحي وحتى في الرسوم والنقوش الجنائزية.

ولعل أبرز ما يوضح خوف الإغريق ونفورهم من الموت، أنهم اعتبروه نوعاً من الدنس، فمن العادات الاجتماعية التي شاعت في أثينا وضع إناء يحتوي على ماء نظيف بجانب بيت المتوفى ليغسل كل من يخرج من البيت يديه ويطهرها من دنس الموت.

ورغم الخوف والكراهية المتأصلة في نفوس الإغريق تجاه الموت، فإن بعض الشخصيات المسرحية كانت تتشوق إليه وترى فيه الخلاص والراحة. ولا يعني هذا أن ذلك كان سمة عامة في المسرح، لكن بعض الشخصيات تفضل الموت على الحياة بسبب ظروفها الخاصة: فعندما تصبح آلام الحياة أكثر مما يحتملها إنسان، فليس هناك أفضل من الموت. وعندما يفقد الإنسان كل أمل في الحياة ويرى أن لا شيء هناك يستحق أن يحيا لأجله، فإنه يفضل الموت على حياة هذا طابعها. وعندما يكون لزاماً على إنسان أن يلقى الموت فيجب أن يلقاه بشجاعة ولا يجبن في مواجهته، فالموت المشّرف لا يقل في قدره عن الحياة ذاتها.

إن أهم ما يحزن إلكترا في حادثة مقتل أبيها أجاممنون، هي الطريقة التي مات بها وليس الموت نفسه، فلو أنه مات ميتة تليق به في ساحة الوغى لما حزنت كل ذلك الحزن.

والناظر في المسرحيات الإغريقية لا بد وان يخرج بملاحظات أخرى حول رؤية الإغريق التي تفرق بين موت الرجل وموت المرأة. إذ يبدو أن الوضع الاجتماعي المتدني للمرأة الإغريقية، ونظرتهم إليها باعتبارها مواطنا من الدرجة الثانية، قد انعكس في تقييم المجتمع لموتها. فقد نظر المجتمع الإغريقي لموت الرجل على انه كارثة كبرى فهو يحمل اسم العائلة وبموته ينتهي ذكرها، لكن موت المرأة ليس بذي قيمة. لذلك تقول افيجينا لأورست إنها على استعداد أن تموت بنفس راضية كي تنقذه ويصل بيته سالماً لأنه بموت الرجل تنهار الأسرة، أما موت النساء فلا قيمة له. ويتكرر هذا المعنى مرة أخرى على لسان افيجينا في مسرحية (افيجينا في أوليس) حين تقول انه من الأفضل أن تموت عدة نساء لو أن ذلك يحفظ لرجل واحد حياته. ورغم أن هذه الإشارة محددة بزمن الحرب، فإنها تنطلق كذلك من نظرة المجتمع وتقييمه للمرأة حية وميتة.[1]

احتلت مشكلة الدفن مكانة ليست بالقليلة في المسرح الإغريقي، فهي المحور الذي تدور حوله العديد من المسرحيات: مسرحية "أنتيجوني" لسوفوكليس تدور حول تضحية الأخت بحياتها من اجل أن تدفن أخاها. أما مسرحية "أياس" فتثير تساؤلاً حول أحقية البطل المنتحر في الدفن برغم ما كان يخطط له من قبل ضد بقية قادة الجيش.

وتدور مسرحية "المستجيرات" ليوربيدس حول كفاح أمهات المحاربين الذين سقطوا على أبواب طيبة من اجل الحصول على جثث أبنائهن حتى يتمكن من دفنهم.[2] بالإضافة إلى هذه المسرحيات، فلا تكاد تخلوا مسرحية من سطور عديدة حول الدفن وقدسيته أو الحداد، والقبر والقرابين التي توضع عليه استرضاء للقوى الأرضية ولأرواح الموتى.

1. أهمية الدفن وطقوسه

وفلسفة الدفن عند الإغريق فلسفة بسيطة في جوهرها، قوامها أن الدفن واجب الأحياء تجاه الموتى، بالإضافة إلى انه يحفظ النظام لكل من عالم الموتى وعالم

---

[1] – د .منيرة كروان: العالم الآخر في المسرح الإغريقي، دار المعارف، 1993، ص 17-18

[2] – يوربيدس، المستجيرات.

الأحياء، فعالم الموتى لا يمكن أن يقبل بين جنباته روحاً لم تجر لصاحبها طقوس الفن المتعارف عليها. وعالم الأحياء لا يمكن أن يستقر ويسوده الأمان وهناك روح هائمة لا تجد لها مستقر.

ومن بين الإشارات العديدة لأهمية الدفن، فان إحدى مسرحيات يوربيدس تبلور لنا وجهة النظر الإغريقية في وجوب الدفن وقدسيته. يقول اوراستوس في مسرحية "المستجيرات":

اتركوا الأرض الآن تخفي جثث الموتى
وتعيد إلى جوفها ما خرج منها إلى حيث الضوء
فتعود الروح إلى الأثير ويغيب الجسد في الثرى
ذلك أننا لا نملك جسدنا هذا إلا...
لكي نسكنه أثناء الحياة أما بعد ذلك
فيجب على الأرض التي ترعانا أن تسترده

فالدفن حسب المعتقد الإغريقي، وضع للأمور في نصابها الصحيح، وهو عملية ضرورية لضمان وصول الروح للعالم الآخر، فإذا لم تدفن جثة الميت ظلت روحه حائرة بين عالمي الأحياء والموتى: لا يقبلها الأحياء في عالمهم، فلم يعد صاحبها ينتمي إليهم، ولا يقبلها الموتى كذلك في مملكتهم لان صاحبها لم يدخل في زمرتهم بعد.

والتراث الإغريقي زاخر بالأمثلة التي تعكس إيمانهم بان عملية الدفن هي البداية التي تعبر منها الروح للعالم الآخر لتستقر في مملكة الموتى "فنعرف من الاليازة أنه عندما يسقط بطل من المحاربين فان روحه تبقى حائرة ولا يمكن أن تجتاز بوابات هاديس دون أن تتم لها شعائر جنائزية معينة". وعندما يموت باتروكلوس، فان شبحه يأتي إلى صديقه أخيليوس في نومه ويعاتبه على ترك جثته بدون دفن، ويتوسل إليه ليدفنه على وجه السرعة، حتى تتمكن روحه الهائمة من عبور بوابات العالم السفلي.

وفي "الأوديسيا" تكثر الإشارات إلى الأرواح الهائمة التي لا تجد لها مستقراً ولا تستطيع عبور نهر (ستيكس) الذي يفصل بين عالمي الأحياء والأموات، لأن جثتهم لم تدفن بعد، ومن ثم لا يمكن قبولهم في العالم الآخر.

ولقد تأصلت فكرة وجوب تكريم الموتى بدفنهم حتى باتت من أهم المبادئ التي حرص الإغريق على القيام بها. وكم من مرة وقفت الحروب وسكتت أصوات القتال كي يتمكن الطرفان المتحاربان من دفن موتاهم.

إن حق الموتى في الدفن حق مقدس كفلته لهم الآلهة وأكدته التقاليد والأعراف، لذلك اعتبر منعهم من هذا الحق عملاً بربرياً وعدوانياً على الناموس الطبيعي. لذلك يؤكد يوربيدس أن بلاد الإغريق بأسرها تغضب إذا حاول احدهم حرمان الموتى من هذا الحق. ففي مسرحية "المستجيرات" يخاطب ثيسيوس الرسول الطيبي قائلاً: "أتظن أنك تهين أرجوس وحدها بعدم دفن الموتى؟ فمن يجسر على أن يحرم الموتى من الدفن في قبورهم التي هي حق لهم، فكأنما أساء بهذا للإغريق جميعا".

وعندما يحاول أحدهم أن يحرم الميت من حقه في الدفن فإنه لا يخطئ فقط في حق الميت، لكنه ينتهك كذلك كل القوانين الإلهية والأخلاقية التي تحتم الدفن.

هذه النظرة الإغريقية للدفن وقدسيته تجعلنا أكثر تفهما لذلك الإلحاح في طلب الدفن بعد الموت الذي يجيء على لسان العديد من الشخصيات المسرحية. ففي مسرحية سوفوكليس "أوديب ملكاً" نجد أن أوديب لا ينسى رغم فظاعة الموقف وهول الكارثة أن يوصي أبناءه بدفن جثة يوكستا والأم.[1] وهو الرجاء نفسه الذي نسمعه على لسان بولونيكس في مسرحية "أوديب في كولونوس" ففي هذه المسرحية يطلب بولينيكس من آخته أنتيجوني حينما تحاول جاهدة أن تعود لطيبة لتقوم بدفن جثته إذا ما لقي حتفه في صراعه مع أخيه، وهي حينما تفعل سوف تضمن امتنان روحه وتقديرها لصنيعها.[2]

وبمقتضى القانون الإغريقي كان الدفن حقا لكل مواطن، باستثناء أولئك الذين خانوا وطنهم أو ارتكبوا جريمة عقوبتها الإعدام، فقد حرمهم القانون شرف الدفن وقضى بأن تترك جثتهم في الخلاء للحيوانات المتوحشة والطيور المفترسة.[3]

وفيما يبدو تميزت عادات الدفن في أتيكا قديما بالبساطة، فكان على الأقارب أن يحفروا قبرا بسيطاً توضع فيه الجثة ويهال عليها التراب وتنتهي الشعائر

---

[1] – سوفوكليس، أوديب ملكاً.

[2] – سوفوكليس، أوديب في كولونوسً.

[3] – د .منيرة كروان: العالم الآخر في المسرح الإغريقي، ص 29-30.

الجنائزية بإقامة وليمة تُذكر أثناءها فضائل الميت. غير أن هذه البساطة تحولت في العصر الهومري إلى شعائر وطقوس غاية في التعقيد.

وتبدأ هذه الشعائر بإغلاق فم الميت وعينيه، ثم يقوم احدهم بغسل الجثة ووضع العطور عليها، ثم تكسى بملابس بيضاء وتوضع على حامل لتعرض على الأهل والأقارب لتوديع الميت. وهنا تتعالى صيحات النسوة ويرتفع عويلهن ويبدأن في لطم الخدود وتمزيق الثياب وفعل كل ما من شأنه إظهار الحزن والألم.

وكثيراً ما كان يتم الاستعانة بنائحات محترفات في هذه المهمة. وبينما يبقى الجسد مسجى ليلقي الأهل والأصدقاء نظرة وداع أخيرة عليه، يحيط به من كل جانب المغنون الذين يشرفون على أداء المرثية، التي تصاحبها صيحات النساء وعويلهن.

وبعد فترة عرض مناسبة، يتم وضع الجثة فوق المحرقة، ويقوم الأهل والأقارب أثناء حرقها بنحر العديد من الذبائح بجانب المحرقة وذلك على ما يبدو لاسترضاء القوى الأرضية والهة العالم الآخر التي سيحل عليها الميت ضيفاً.

وعندما تخمد النيران، يرش الرماد بالماء والخمر ويجمع في قوارير مصنوعة من خامات قيمة وتلف في قماش أرجواني ثمين ثم تدفن القارورة في القبر.

ولقد ظلت هذه الشعائر المعقدة سائدة ردحاً من الزمن، وغالى فيها البعض، حتى جاء صولون ليضع حدوداً وضوابط. فقد حرّم أن يقوم أهل الميت بالمغالاة في إظهار حزنهم وخاصة النساء. كما منع تلاوة المراثي واستئجار نائحات محترفات.

وحدّ صولون كذلك من كل مظاهر البذخ والإسراف التي كانت تحدث في الجنازات، وكف الناس عن ذبح الثيران بجانب القبور كقربان لآلهة العالم الآخر ولأرواح الموتى.

كما أصدر تشريعاً بتقليل ما يدفن مع الميت من ملبوسات وحلي. وقد أدى ذلك كله إلى أن تتصف الشعائر الجنائزية بشيء من الاعتدال وهو ما تكشفه الشواهد الأثرية وتؤكده المسرحيات الإغريقية.

وأبسط شعائر الدفن تقدمها لنا مسرحية سوفوكليس ((أنتيجوني)): فلم يكن في مقدور أنتيجوني وهي فتاة وحيدة أن - تواجه قرار كريون بمنع دفن جثة بولونيكيس كما تواجه الحراس المنوط بهم مراقبة الجثة- أن تقوم بشعائر الدفن المعتادة، لذلك قامت بأبسط هذه الشعائر والتي يصفها الحارس قائلاً:

"وفي التو حملت في راحتيها (حفنة من الرمال)
العطشى
ومن قارورة برونزية ذات زخرف رائع مرفوعة للأعلى
توجت الجثمان المسجى بسكيبة صبتها عليه ثلاث
مرات "

فإن حفنات قليلة من الرمال الجافة تنثر فوق الجثة. وصب قليل من القرابين، يعتبر كافياً لكي يتم استقرار الروح في العالم الآخر.

وعندما يعرف كريون أن الآلهة غاضبة منه، وأنها سوف تُنزل به أشد العقاب لمنعه دفن جثة بولونيكيس، فإنه يأمر بدفن الجثة – أو ما تبقى منها– وقد تم ذلك أيضاً بأبسط أشكال الشعائر الجنائزية والتي يصفها الرسول بقوله أنهم وجدوا جثة بولونيكيس وقد مزقتها الكلاب، فأخذوا ما تبقى منها وأجروا لها شعائر دفن متواضعة بدأت بصلاة لبرسيفوني وهاديس كي يُحوِّل غضبهما على بولونيكيس المسكين إلى رحمة وشفعة[1]. ثم غسلوا ما تبقى من جثته من الأدران، ووضعوها فوق بعض الأغصان التي لم تجف بعد وقاموا بحرقها. وأخيرا أقاموا له قبرا بسيطاً في وطنه طيبة.[2]

وتقدم لنا مسرحية "أياس" نموذجاً أكثر تعقيدا لعملية الدفن. فعندما يستقر الرأي على دفن جثة البطل المنتحر، يأمر تيوكر الرجال أن يقوموا بعمل التجهيزات اللازمة للدفن وهي تبدأ بحفر القبر الذي سيدفن فيه، ثم تجهيز الماء الساخن اللازم لغسل الجثة من الأدران، وبعد غسل الجثة يتم إلباسها فاخر الثياب. ولأن أياس كان قائدا عسكرياً فقد طلب تيوكر أن يحضروا أسلحته لتوضع معه في قبره وهو ما كان أياس قد أوصى به قبل موته[3]

ولقد أثبتت الاكتشافات الأثرية أنه عادة ما كانت توضع مع الميت بعض الأسلحة، وبعض أنواع الأمتعة الخاصة بالمقابر. وكان مقدار ما يزود به الميت من هذه الأشياء يتفاوت تفاوتاً عظيماً من عصر لآخر. فقد كان من عادة النبلاء الموكينيين أن

---

[1] – سوفوكليس: انتيجوني

[2] – د .منيرة كروان: العالم الآخر في المسرح الإغريقي، ص 31-32

[3] – سوفوكليس: "أياس"

يدفنوا مع موتاهم ثروات عظيمة، غير أن أهل العصور التالية كانوا أكثر منهم توخياً لدواعي التدبير والاقتصاد، إلا أنه لم يكن من المألوف أن يحرم الميت من بعض المقتنيات. وكان من المعتاد. إذا كان الميت امرأة أن يضعوا معها كل ما من شأنه أن يزينها في العالم الآخر. وإذا تسمح الظروف ولم يكن باستطاعة الآهل أن يضعوا مع المتوفاة الغالي والنفيس من الهدايا، فإن بعض الحلي الرخيصة تفي بالغرض، لكنهم لم يحرموا امرأة من زينتها الأخيرة مهما كانت الظروف. وبعد أن ينتهي الأهل من غسل الجثة وإلباسها فاخر الثياب وتزيينها بالحلي، تأتي المرحلة الأخيرة وهي عملية الدفن ذاتها.

ولقد عرف الإغريق طريقتين للدفن: الأولى أن تحرق الجثة ويوضع الرماد المتبقي من عملية الحرق في إناء يلف بفاخر القماش ثم يوضع الإناء المحتوي على الرماد في القبر، والثانية أن توضع الجثة في القبر مباشرة أو توضع في تابوت حجري أو خشبي ويدفن التابوت في القبر.

وفي بعض الحالات لم يكن هناك مجال للاختيار، وكان يجب استخدام طريقة الحرق وهو ما حدث فعلاً عند انتشار الوباء في أثينا عام 430 ق.م. فقد تم إحراق جميع الجثث خوفاً من تكدسها وما تحدثه من تلوث يزيد من حجم الكارثة.

كما أن طريقة الحرق كانت تُسهّل نقل رفات من ماتوا بعيداً عن وطنهم، وهو ما تعكسه المسرحيات الإغريقية، ففي مسرحية الكترا لسوفوكليس، يحمل الغريب نبأ موت أورستيس في المنفى ويقدم لأهله القارورة التي تحتوي على رماد جثته ليدفنوها.[1]

ولقد عرفت نساء الإغريق عادة إهالة التراب على رؤوسهن باعتباره مظهراً للحزن الشديد على الموتى، كما كن يقمن بقصّ شعورهن ويعلقنها على هيئة ضفائر في فناء البيت الأمامي. على حين اقتصرت مظاهر الحداد بالنسبة للرجال على قص الشعر ولبس السوداء.

وكانت فترة الحداد تمتد عاماً كاملاً كما يرد في بعض المسرحيات، ففي مسرحية ((الكستس)) يقول أدميتوس معقباً على وفاة زوجته الوفية: إنّ المدينة لن تعرف المرح والبهجة ولن يسمع فيها صوت ناي أو قيثارة لمدة اثني عشر شهرا كاملة،

[1] – سوفوكليس إلكترا

هي فيما يبدو فترة الحداد التي قضى بها العرف وسارت عليها التقاليد لأنه يقول في موضع آخر، مخاطباً زوجته وهي تحتضر، إنه سوف يعيش في حداد دائم عليها وليس لمدة عام كما جرت به العادة.[1]

وفي اللحظات الأخيرة كان الأهل والأقارب يودّعون الميت ويتلون الصلوات التي يتضرعون فيها لآلهة العالم الآخر كي تستقبل فقيدهم استقبالاً حسناً حتى ينال الحظوة والتقدير في عالمه الجديد. وبعد هذه الصلاة يحملون الجثة أو التابوت أو القارورة التي تضم رماد الجثة ويضعونها في مقرها الأخير، القبر.[2]

ولقد اهتم الإغريق بالقبور اهتماماً عظيماً، وأسبغوا عليها نوعا من الجلال والقدسية حتى غدا بعضها مزاراً أو مركزاً للنبوءة. رغم إيمان الإغريق بأن أرواح الموتى تعيش في عالم بعيد قصي هو مملكة الموتى أو العالم الآخر ومن الجدير بالملاحظة أن العديد من المجتمعات قد عرفت هذه الثنائية فيما يتعلق بالموتى، فرغم تصورهم لوجود عالم تسكنه أرواح الموتى يقع في أعماق الأرض، فإنهم لم يكفوا عن تصور أن الموتى يحيون داخل قبورهم وواظبوا على تقديم قرابين الطعام والشراب لهم.

ويرى Gardner أن هذا التناقض ما هو إلا أحد التناقضات الجوهرية التي عرفتها الشعوب على مر الأزمان

لذلك لم يكن من المستغرب أن يهتم الإغريقي اهتماماً كبيراً بالقبور، رغم إيمانه بوجود الأرواح في العالم الآخر، لان القبر هو البوابة التي باجتيازها تبدأ الروح رحلتها الطويلة والشاقة للعالم الآخر.

ولقد اختلفت القبور في أشكالها وأحجامها وطريقة بنائها اختلافاً كبيرا لاختلاف المكان الذي أقيمت فيه وطبقاً لاختلاف طريقة الدفن. وأقدم إشكال القبور وأبسطها ليست سوى حفرة صغيرة في الأرض توضع بداخلها الجثة، ثم تكوَّم فوقها الأحجار أو يهال عليها التراب على هيئة تل صغير.والى هذا النوع تنتمي تلك القبور التي ما تزال موجودة على شواطئ البوسفور والتي تحوي بقايا أبطال ملاحم هوميروس مثل آخيلليوس وباتروكلوس، كما شيد الأثينيون قبوراً على نفس هذا النمط ليدفنوا فيها شهداء المعارك الحربية.

---

[1] – يوربيدس: الكستيس

[2] – د .منيرة كروان: العالم الآخر في المسرح الإغريقي، ص 35.

أما في الجزر اليونانية، حيث تسيطر الطبيعة الصخرية فقد انتشرت القبور الصخرية وهي تلك القبور، التي حفرها السكان في الصخر، أو قاموا بعمل بعض التعديلات في الشقوق والكهوف لتصبح قبراً ملائماً، ولم ينسوا أن يضيفوا لمسة فنيّة لتلك القبور حتى يكسروا حدة الصخر وبرودته.

ولقد اكتشف العالم الأثري Fiedler القبور المبنيّة من الحجر الجيري، وهو يمثل ما كانت عليه القبور في الفترة الكلاسيكية. ولقد عثر Fiedler بداخل التابوت على الهيكل العظمي للمتوفى ومعه قنينتان وقطعتان من العملة النحاسية.

وهذا الدليل الأثري يؤكد صحة ما تقول به المصادر الأدبية من أن الإغريق كانوا يزودون موتاهم ببعض العملات النقدية ليدفعوها للملاح المتجهم خارون charon حتى ينقلهم بقاربه عبر نهر ستيكس Styx الذي يفصل بين عالمي الأحياء والموتى

وكان من عادة إغريق الفترة الكلاسيكية أن يلحقوا بالحجرة التي يدفن فيها الميت حجرة أخرى أصغر منها حجماً ويغلقونها بإحكام. وكانت هذه الحجرة بمثابة مخزن يحتوي على كل أصناف الطعام والشراب. وقد عثر Fiedler في المخزن الملحق بحجرة الدفن على أعداد كبيرة من القدور وبأحجام مختلفة، بعضها للخمر وبعضها للزيت والبعض الآخر للقرابين السائلة. كما عثر على مجموعة من الأكواب المصنوعة من الفخار المحروق. ومن الأشياء الطريفة التي عثر عليها بين محتويات ذلك المخزن مرآة مصنوعة من البرونز، ومصباح صغير قد تم استعماله فعلاً[1]

ومن أهم الأشكال الفنية الخاصة بالقبور والتي انتشرت عبر بلاد الإغريق ما يُعرف بشواهد القبور، وهي عبارة عن كتلة رفيعة ورقيقة من الحجارة ذات نهاية مدببة. تزينها باقات الزهور سواء بطريقة النحت البارز أو الغائر.

ولقد تطورت شواهد القبور تطوراً ملحوظاً، ويرجع أقدم ما تم العثور عليه حتى الآن إلى القرن الثامن ق.م، لكنه لا يقدم لنا الكثير لسوء حالته. ومن بين ما كتبه أرخيلوس (710-680 ق.م) شاهد لقبر يضم اثنين من الموتى تقول كلماته: ((أيتها الأرض الطيبة، فلتضمي بين جنباتك اثنين من أعمدة ناكوس العظام: ميجاتيموس وأرسطوطون)). صنعت أنا أدامينوس هذا الشاهد ليظل رمزاً للعظمة، وليدمر زيوس

[1] – د .منيرة كروان: العالم الآخر في المسرح الإغريقي، ص 36-37.

كل من ((يحاول تحطيمه)). ولا يأتي ذكر إطلاقاً للميت الذي يرقد في القبر، وكأن الشاهد وصانعه أكثر أهمية من الميت نفسه. ويفسر السيد C.M.Bowra إغفال شواهد القبور في هذه الفترة لذكر اسم الميت برغبة الأهل في إبعاد الحظ السيئ عن روح الميت وجثته وعدم إثارة الآلهة وإشعال غيرتهم ضده.

ثم تزايد الاهتمام بالميت نفسه وأصبح الشاهد مصدراً لمعرفة المزيد من المعلومات عن المتوفى. فأحد شواهد القبور التي ترجع إلى القرن السادس منقوش عليه: ((أيها المواطن، أيها الغريب القادم من طرق بعيدة، ارحم تيتخوس الشجاع ثم مر بسلام، لقد مات في الحرب وخسر أيام الشباب ابكِ عليه ثم امضِ في سلام إلى حيث تقودك أعمالك الصالحة)).

ومعظم شواهد القبور في هذه الفترة تأخذ نفس النمط، فهي توجه الحديث للمارة وتطلب منهم أن يشفقوا على الميت وأن يتذكروه. ثم بدأت الشواهد تعطي مزيداً من المعلومات عن الميت نفسه مثل "لمبيتو" التي ماتت بعيداً عن وطنها، و((فراسكيليا)) التي تلقب دائماً بالعذراء والتي حصلت على هذا الاسم من الآلهة بدلاً من الزواج، وكذلك ((كسينوفانيس)) الذي شيد له أبوه هذا القبر ((بسبب تقواه وتواضعه)).

ولقد تفاوتت نقوش شواهد القبور بين كلمة ((وداعاً)) فقط وبين كتابة عبارات مطولة يعبر فيها الأحياء عن حزنهم الشديد. فعلى شاهد قبر سيدة تدعى ميليتي منقوش ((الوداع- هذه مقبرة ميليتي. أحسن النساء ترقد هنا، التي أحبت زوجها المحب أوتيموس. ولأنك كنت أكثر من ممتازة فإنه يشتاق إليك بعد موتك. فعلاً كنت أفضل النساء)) ومن الغريب أن الكتابة على شاهد القبر تستكمل كالآتي: ((وأنت أيضا يا زوجي العزيز وداعاً واهتم بأطفالنا)). وكأن كاتب القبر يستنطق الزوجة بعد موتها بهذه العبارة.

ولقد شيدت بعض القبور على هيئة واجهة ونحتت صورة المتوفى بالطريقة البارزة في وسط الأعمدة، وفي أحيان أخرى كان يتم عمل تمثال نصفي أو كامل للميت بدلاً من النحت لكنها لم تنتشر سوى في العصر المقدوني والروماني لأنها كانت تتطلب تكاليف باهظة.

ولقد حرص الإغريق على تزيين جدران المقابر بتلك اللوحات الجنائزية التي لا تكاد يخلو منها متحف من المتاحف الكبيرة. وتمثل هذه اللوحات – وان اختلفت في

بعض التفاصيل- رجلاً وسيدة جالسين إلى وليمة حافلة بما لذ وطاب من المأكل والمشرب، وبينما يجلس الرجل متكأً على الطريقة الإغريقية المعروفة، تجلس السيدة إلى قدميه، والى جانبها عبد يقدم لها الخمر.[1]

وقد اختلفت القبور كذلك في الحجم، فكان بعضها صغيراً، وكان بعضها كبيراً بحيث يضم خمس أو ست مقصورات للدفن.

وعلى ما يبدو في الإشارات التي ترد في المسرحيات الإغريقية، كان يجوز دفن الرجال والنساء معاً. ففي مسرحية ((حاملات القرابين)) لأسخيلوس، حيث تسمع كليمنسترا نبأ مقتل عشيقها ايجستوس، تصرخ من شدة الحزن فيقول لها أورستيس متهكماً: ((أتحبين زوجك؟ إذن سوف ترقدين معه في نفس القبر...حتى لا تتخلين عنه أبداً، حتى بعد موته...)).

وفي مسرحية "الكستيس" ليوربيدس حين يعصر الألم نفس أدميتوس لفراق زوجته الوفية، يرجوها أن تنتظره ليموت معها بعد أن يأمر بتجهيز تلك الحجرة التي ستضمهما معاً، يقصد القبر، فهو سيوصي أن يدفن مع زوجته، حتى يرقد بجانبها إلى الآبد.

وتكشف المسرحيات مدى قدسية القبور ومكانتها السامية في نفوس الإغريق: ففي مسرحية الفرس يؤكد ايسخولوسأن المحاربين الإغريق كانوا مدفوعين في حربهم مع الفرس بحماسهم وحميتهم للدفاع عن وطنهم وعن زوجاتهم وأبنائهم، وكانوا مدفوعين كذلك برغبتهم في حماية مقدساتهم التي يحرصون على ألا يدنسها معتدي، وهذه المقدسات هي معابد للآلهة وقبور الأسلاف.[2]

---

[1] – لقد أثارت هذه اللوحات جدلاً كبيراً، وتعجب كثير من الدارسين كيف ترسم الولائم والحفلات على جدران القبور. وكيف تصور المتع الحسية الدنيوية على جدران تلفها برودة الموت. وأسفر الجدل على ثلاثة آراء: فيرى Gardner أن هذه الرسومات تمثل مناظر من الحياة اليومية للمتوفى. بينما يفسر K.O.Mmuller هذه المناظر على أنها تمثل النعيم الذي سيقيم فيه الأبرار في العالم الآخر والملذات التي سوف ينعمون بها. في حين يقف الأستاذ Gerhard حائر بين احتمالين: فهو يتكلم أحيانا عن الرسم الجنائزي على انه للمتوفى ويمثل اللذات التي سوف ينعم بها في العالم الآخر. وفي أحيان أخرى يشير إليه باعتباره يمثل احتفالاً يقيمه الأقارب والأصدقاء في ذكرى المتوفى.

[2] – المرجع السابق، ص 39-40

2- صورة العالم الآخر في المسرح الإغريقي

منذ أن أدرك الإنسان حتمية الموت، شغل تفكيره بمشكلة ما بعد الموت، لأنه لم يستطع أن يستوعب فكرة أنه بموته ينعدم وجوده تماماً ويتلاشى وكأن لم يكن.

إن التفكير في الحياة الأخرى أو الوجود بعد الموت تأكيد لأهمية الحياة نفسها، فلو أن حياة البشر انتهت بموتهم لكانت الحياة نوعاً من العبث الذي لا معنى له ولا هدف.

ولقد شغل التفكير في العالم الآخر، عالم ما بعد الموت، ذهن الإنسان في كل زمان ومكان، ولقد كان هوميروس أول من قدم للإغريق تصوره لهذا العالم، وحكى لهم قصة خلقه. ففي الإلياذة يحكي بوسيدون قصة خلق الكون فيقول إن الإخوة الثلاثة زيوس وهاديس وبوسيدون ولدوا من أبوين هما كرونوس وريا، وقسمت بينهم جميعاً الأشياء، فأخذ كل منهم منطقته المخصصة له عن طريق القرعة، فكان البحر من نصيب بوسيدون، وكانت السماء من نصيب زيوس، أما الظلام الدامس فكان من نصيب هاديس.

فأول ملامح الصورة التي يرسمها هوميروس للعالم الآخر هي الظلام، فالشمس الساطعة لا تصافح أشعتها وجوه الموتى سواء في صعودها إلى كبد السماء، أو حينما تهبط مرة أخرى إلى حضن الأرض، إنما يلف الموتى التعساء ظلام حالك.

والسمة الثانية للعالم الآخر عند هوميروس هي الكآبة. فعندما يلتقي أوديسيوس بروح العراف ترسياس، تكون أولى الكلمات التي يخاطبه بها العراف هي:

((ما خطبك أيها التعس، لماذا تركت ضوء الشمس
وقدمت إلى هنا، لترى الموت ومنطقة لا مرح فيها؟))

فمملكة الموتى كما يصورها هوميروس، مكان كئيب مظلم لا يسر القلب أو العين ولا يعرف المرح والسعادة إليه طريقاً.

لقد تصور هوميروس أيضاً أن العالم الآخر يقع في مكان قصي في أعماق الأرض، وأن هناك العديد من الصعاب والعقبات التي تجعل من المستحيل على غير الموتى أن يصلوا إليه، بل إن الموتى أنفسهم يصلون إليه بشق الأنفس.

والموتى كما يصورهم هوميروس، يحيون في العالم الآخر حياة الأطياف، أطياف فاقدة لكل القوة التي كانت تسري في عروقها قبل الموت.

وينقسم العالم الآخر عند هوميروس إلى قسمين: القسم الأول يُعاقب فيه أولئك الذين ارتكبوا جرائم في حق الآلهة، مثل سيزيفوس وتانتالوس وتيتيوس. وهم يعانون أشد أنواع العذاب وهم في كامل وعيهم حتى يشعروا بما ينزل بهم من عقاب.

وهناك، في العالم الآخر مكان جميل يتواجد فيه الأخيار يسمى ((السهل الألوسي)) حيث تسير الحياة في سهولة ويسر. كما تشير إلى مكان بهيج آخر تسكنه أرواح الأبطال ويسمى ((جزر المباركين)) حيث تنبت أجمل الزهور.

وتتميز الصورة العامة التي رسمها هوميروس للعالم الآخر بالضبابية وعدم الوضوح فلا يمكن أن تلمح فيما كتبه الكيفية التي يحيا بها الموتى في عالمهم: كيف يقضون أوقاتهم، ماذا يفعلون في حياتهم اليومية في ذلك العالم.

ولقد ظلت هذه الصورة الهوميرية الضبابية للعالم الآخر سائدة ردحاً من الزمن، لكنها بدأت تتغير وتتضح معالمها بالتدريج.

ثم ساعدت العبادات السرية المعروفة بالأسرار في زيادة وضوح معالم صورة العالم الآخر في ذهن الإغريق، لأن الهدف من هذه العبادات كان ضمان حياة سعيدة فيما بعد الموت. فالأسرار الآليسوية – طبقاً لما نعرفه عنها حتى الآن - لا تُلزم أتباعها ومريديها بسلوك معين في حياتهم اليومية، إنما هي مجموعة من الشعائر والطقوس إذا قام الإنسان بها في حياته ينال السعادة في العالم الآخر أياً كان سلوكه في حياته.

لذلك كان من الطبيعي أن تثار حولها التساؤلات، ويقول أحد الفلاسفة ساخراً "هل ينعم لص فاجر بحياة أسعد في هاديس لمجرد أنه حفظ هذه التعاويذ وقام بأداء هذه الطقوس في حين يحرم من ذلك المصير رجل صالح لمجرد أنه لم يقم بها". كما يسخر أريستوفانيس من فكرة أن ينال الإنسان مصيراً أفضل في العالم الآخر لمجرد أنه تلقى هذه الأسرار، فيجعل ترجايوس في مسرحيته ((السلام)) يقترض ثلاث دراخمات ليشتري بها خنزيراً يضحي به ليتلقى هو الأسرار هو قبل موته حتى يضمن أن يعيش سعيداً فيما بعد الموت.

ويرى W.K.C.Gutihrie أن العقيدة الأورفية بدأت تتلمس طريقها في الوجود مع بدايات القرن السادس قبل الميلاد وأنها صارت في القرنين الخامس والرابع ق.م أقوى المذاهب الدينية وأكثرها تأثير. وتجمع آراء القدماء والمحدثين على أن كثير من تعاليم الأورفية، إن لم تكن كلها، مأخوذة عن الديانة المصرية القديمة[1].

---

[1] – المرجع السابق، ص 58-59.

ولقد جعلت العقيدة الأورفية جلّ اهتمامها منصباً على الحياة بعد الموت، وكان شغلها الشاغل كيف تصل الروح بسلام إلى العالم الآخر دون أن تتخبط في الدروب المتشابكة، ودون أن تحيد عن طريقها وسط الممرات المتشابهة. وكان على معلمي الأورفية أن يلقنوا الروح ما ستفعله لتهبط بسلام، وما سوف تقوله لحراس العالم الآخر، حتى يسمحوا لها بالمرور والاستقرار في أرض الأبدية والخلود، ولقد تبلورت هذه التعليمات فيما يسمى بـ((الألواح الذهبية)) أو الألواح الأورفية، التي كانت توضع مع الميت في قبره أو تعلَّق في عنقه على هيئة تمائم لتكون مرشدة في عملية النزول للعالم الآخر وهي تتفق في ذلك الهدف مع كتاب الموتى، الذي حرص المصريون القدماء على وضع بعض نصوصه مع موتاهم في القبور.

ولقد ساعدت العقيدة الأورفية في زيادة توضيح معالم صورة العالم الآخر في ذهن الإغريق. وبدلاً من تلك الصورة الهلامية التي يلفها الضباب التي رسمها هوميروس، وصفت الألواح الأورفية العالم الآخر وصوَّرته على أنه يشبه الأرض التي نحيا عليها لكنه أكثر جمالاً وروعة، مليء بعيون الماء والأشجار. كما تصور الموتى على أنهم في حالة أشبه بحالتهم وهم أحياء، فلم يعودوا أطيافاً هزيلة تُهمهِمُ بكلمات غير مفهومة لكنهم يتكلمون ويتحاورون مع حراس العالم الآخر.

وبسبب انتشار الأليوسية والأورفية بدأت صورة العالم الآخر تتضح في ذهن الإغريقي، ومع بدايات القرن الخامس ق.م أصبح قادر على تصور أدق التفصيلات التي ستراها روحه في العالم الآخر.[1]

وسنحاول في هذا الفصل أن نحدد ملامح صورة العالم الآخر من خلال المسرحيات الإغريقية، وان كنا ندرك أن ما تقدمه هذه المسرحيات ليست الصورة الكاملة، وذلك لكثرة ما فقد من التراث المسرحي، الذي كان من الممكن أن يمدنا بالكثير من المعلومات عن تصور الإغريق للعالم الآخر لو أبقت عليه يد الزمان.

حين يأتي الموت لإنسان تنتهي صلته بعالم الأحياء، وتبدأ رحلته إلى العالم الآخر قاطعاً ذلك الطريق البغيض المليء بالعقبات.

وأول العقبات نهر ستيكس (معناه الكريه) الذي يعبره الموتى بمساعدة خارون العبوس الذي يصيح في تجهم بوجه كل من يتلكأ في ركوب قاربه العتيق. وهو دائم الغضب وفي عجلة من أمره طوال الوقت.

وإذا كان الطريق إلى العالم الآخر مليئًا بالصعاب، فلأن الخروج منه هو المستحيل بعينه. فهناك ذلك المخلوق البشع (كربيروس) الذي يحرس بوابة مملكة

---

[1] – نفس المرجع، ص 60-61

الموتى ويمنع من يحاول الهرب منها، كما أنه يفتك بكل من يحاول دخول عالم الموتى وهو على قيد الحياة.

ولقد صورت الأساطير كربيروس في صورة كلب ضخم له مائة رأس، لكنه أصبح يصور فيما بعد على أن له ثلاثة رؤوس مخيفة وثلاثة أجساد في حين تخرج الثعابين من رقبته وظهره.

وبعد الرحلة الشاقة التي تصل الروح إلى مملكة الموتى، إلى هاديس الذي لا تدخله الشمس. لذلك فإن كل شخصيات المسرحيات الإغريقية المقدمة على الموت لا يفوتها أن تقف لحظات تودع أشعة الشمس وضوء النهار، لأنها لن تراها ثانية في تلك المنازل التي لا تدخلها الشمس. فها هو أياس يقف قبل أن ينتحر ليودع الشمس قائلاً:

((إنني أخاطبك أي ضوء النهار اللامع المشرق في هذه اللحظة

و يا رب الشمس يا من تقود مركبتك

أخاطبك كآخر شيء وكنهاية ليس بعدها من شيء

آخر أبدا)).

حتى أوديب، الكهل الكفيف الذي لا يرى للشمس شعاعاً، لا ينسى أن يودع الشمس المشرقة قائلاً: "يا ضوء الشمس هذه هي المرة الأولى التي يشعر فيها جسدي بحرارتك، لأنني الآن في طريقي لذلك العالم السفلي المظلم".

بل إن كل من يتحدث عن الموت في المسرحيات يقرنه بالظلمة في حين يقرن الحياة بالنور. غير أن ذلك لم يمنع الإغريق من تصور إمكانية قضاء حياة سعيدة في ذلك العالم، ففي مسرحية ((الكستيس))- على سبيل المثال – يودع الكورس الكستيس الزوجة الوفية متمنياً لها قضاء حياة سعيدة في هاديس الذي لا تدخله الشمس.

والعالم الآخر مملكة يعيش فيها الموتى ويقوم بإدارة مقاليد الحكم فيها مجموعة كبيرة من الآلهة، على رأسهم زيوس. فالمسرحيات الإغريقية تؤكد أن كبير الآلهة زيوس إله السماوات ببرقها ورعدها، يشرف كذلك على العالم الآخر، فهو يحاكم الموتى ويحدد لهم مصائرهم.

فقد عبد الإغريق زيوس باعتباره إلهاً في العالم الآخر تحت اسم آخر هو Zeus Meilichios.

أما الإله هاديس الذي يجلس على عرش العالم الآخر وبجانبه زوجته برسيفوني، فهو شقيق كبير الآلهة زيوس بوسيدون إله البحر.

وصورة الآلهة هاديس يحوطها الغموض، والرهبة بسبب ذلك الخوف الغريزي الذي يشعر به الأحياء تجاه الموت بالإضافة إلى كونه ذلك العالم البعيد الرابض في أعماق المجهول. لذلك كان الإله هاديس أكثر آلهة الإغريق إثارة للكراهية.

والإله هاديس عند ايسخولوس إله عظيم عادل، يحاسب رعيته بما قاموا من أعمال دنياهم، فهو لا يعاقبهم ولا يكافئهم كيفما اتفق، كما أنه لا يتركهم دون حساب أو جزاء.

إنه يراقب كل أعمالهم ويسجلها حتى ينال كل إنسان بعد موته جزاء ما قدمت يده في حياته. لذلك يقول عنه الكورس في مسرحية ايسخولوس((إلهات الرحمة)):

ذلك لأن هاديس العظيم هو محاسب الفانين
في العالم الواقع تحت الأرض، فهو يراقب كل شيء
بعقله كلوح تُسجَّل عليه الكتابة.

و هاديس هو الإله الذي يرسل الإيرينيات للانتقام ممن يرتكب جرماً أو يقترف إثماً. ففي نفس المسرحية يؤكد ايسخولوس أن ربات الانتقام، اللاتي يرسلهن هاديس، سوف يمسكن بتلابيب أوديستيس وسوف يحضرنه إلى العالم الآخر حيث يلقى عقابه على قتل أمه، وهناك سوف يرى آخرين ينالون عقابهم لأنهم أخطؤوا في حق الإله، أو لم يراعوا حرمة الضيف، أو امتدت أيديهم بالأذى لوالديهم فيلقى كل منهم جزاء جريمته[1].

وتسهب المسرحيات الإغريقية في الإشارة إلى إله آخر من آلهة العالم الآخر هو (هرميس) وتوضيح طبيعة دوره وتشير إليه المسرحيات باسم: هرميس العالم السفلي. ولقد شاع استخدام اسمه في أعمال السحر التي يراد بها إيذاء الغير. ويبدو أن عبادته كانت شائعة ومنتشرة بدرجة كبيرة، حتى أنَ قانوناً صدر يحرّم إقامة تماثيل له فوق القبور.

والمهمة الأولى التي يقوم بها هرميس هي إبلاغ البشر بأحكام الآلهة، كما أنه يوصل للآلهة وللموتى رسائل الأحياء إليهم. لذلك فان الكترا تتضرع إليه قائلة:

---

[1] – ايسخولوس: الصافحات.

أيها الرسول الأعظم للعالمين العلوي والسفلي
أيا هرميس الأرضي استدع من اجلي قوى العالم
السفلي
كي تستمع إلي.(1)

وهو أيضاً الذي يقود أرواح الموتى، إذا ما دعت الضرورة إلى صعودها إلى عالم الأحياء. لذلك فان الكورس يبتهل إليه في مسرحية ((الفرس)) كي يبعث بروح الملك الراحل داريوس إلى النور. يقول الكورس مبتهلاً:

أيتها القوى الأرضية المقدسة
أيتها الأرض، أيا هرميس يا ملك الموتى
فلترسلوا الروح من جوف الأرض إلى النور(2).

أما أشهر صفات هرميس فهو أنه ((مرشد الموتى)) فهو الذي يقودهم في دروب العالم الآخر المتشابهة ومسالكه المتشعبة. ولم تكن مهام هرميس قاصرة على الموتى فحسب بل شملت الأحياء أيضاً فقد كان إلهاً للتجار والرحالة بل واللصوص كذلك. فكأنه كان يحرس الجميع في رحلاتهم، سواء في رحلتهم الأخيرة إلى مملكة الموتى أو في رحلاتهم العادية فوق سطح الأرض. لذلك فإن الإله ابولون يستحلفه أن يرعى أودستيس في تجواله، فهو الإله الحارس.[3]

ومن اللافت للنظر أن أول ما ينطق به أودستيس في مسرحية ((حاملات القرابين)) هو اسم هريس ((العالم السفلي))، إذ يتضرع إليه ليكون منقذه وحليفه، يقول أورستيس:

أيا هرميس الأرضي، يا من تتولى سلطة خولها لك أبو
الآلهة..كن منقذي، وقف حليفاً لي في قضيتي.

وكذلك في مسرحية ((إلكترا)) لسوفوكليس، بينما يقوم أورستيس بقتل أمه وعشيقها، فإن الكورس لا يتوجه لأي من آلهة الأوليمبوس العديدة طلباً للمساعدة

---

[1] – ايسخولوس: حاملات القرابين.
[2] – أيسخولوس: الفرس
[3] – أيسخولوس: حاملات القرابين

إنما يتضرع إلى هرميس كي يمد لهم يد المساعدة وينتهي أورستيس من مهمته بنجاح.

أما ربات الانتقام اللائي يسكن هاديس المظلم والمسميات بالإيرينيات فقد كن يُسببن الذعر والهلع لكل من يسمع اسمهن، وهن أسبق من زيوس ومن آلهة الأوليمبوس أجمعين. والإيرينيات – كما تقدمهم المصادر الأدبية- ثلاث من حيث العدد، لكنهن يعملن كفريق متجانس. وهن ((الرعب غير المرئي)).

وبعد أن يقتل أورستيس أمه، فإنه يستعد للهرب لأن الإيرينيات قادمات للانتقام منه ويصفهن بقوله:

إنهن على هيئة الجورجانات وفي ثياب قاتمة ولهن
جدائل شعر من الأفاعي المتزاحمة.(1)

ونظراً لارتباط الإيرينيات بالليل، فقد كانت تقام لهن الصلوات وتقدم لهن القرابين أثناء الليل وهو ما تؤكده كليمنسترا في حديثها للإيرينيات النائمات، فهي تحثهن بقولها أنها قدّمت إليهن الكثير من القرابين في ظلمة الليل، في ساعة ليست مكرسة لأي إله آخر. ومهمة الإيرينيات كما يشير إليها اسخيولوس، هي الانتقام للدم المهدر والأخذ بثأر القتيل من القاتل.[2]

أما الإيرينيات عند سوفوكليس فهن إلهات الرحمة، وتتجسد هذه النظرة لهن كإلهات للرحمة في صلاة إلكترا حيث تقول:

أيا نزل هاديس وبرسيفوني
أيا هرميس العالم الآخر، يا ربة الانتقام المقدسة
أيتها الإيرينيات المبجلات، يا بنات الآلهة
يا من تراقبن من يلقون حتفهم ظلماً
والذين تدنس مخادعهم
احضرن، امددن يد المساعدة واطلبن الثأر
لمقتل أبينا(3)

---

[1] –أيسخولوس: حاملات القرابين.

[2] – –أيسخولوس: الصافحات.

[3] – سوفوكليس: إلكترا.

كما يتوجه أوديب بصلاته للإيرينيات ويتضرع إليهن أن يكن رحيمات به في شيخوخته، وأن تساعدنه في المرور من الحياة إلى الموت كي ينال قدراً من الراحة بعد رحلة الحياة الشاقة التي كتبتها عليه الأقدار.[1]

أما في مسرحية ((أورستيس)) ليوربيدس فإن الكورس يتضرع إلى الإيرينيات باعتبارهن إلهات الرحمة. كي يخلصن أورستيس من نوبة الجنون الناي أصابته بعد جريمة القتل.[2] وهو ما يؤكد أن الإيرينيات تحولن في ذهن الإغريق من ربات للانتقام إلى ربات رحيمات يتضرع إليهن الإنسان في وقت المحن والشدائد كي يأخذن بيده وينقذنه من محنته.

كانت هذه نظرة سريعة على آلهة العالم الآخر الكائن في أعماق الأرض وسط ظلمات المجهول. غير أن بعض المسرحيات تشير إلى أنه مع منتصف النصف الثاني من القرن الخامس ق.م بدأت نظرة جديدة في التبلور، نظرة تعتبر هاديس بمكانه التقليدي في أعماق الأرض مكاناً للعقاب فقط أما أرواح الصالحين فتصعد إلى السماء.[3]

3- محاكمة الموتى وحياة ما بعد الموت

نلمس فيما تبقى من مسرحيات ايسخولوس إيماناً قوياً بأن الموت ليس نهاية الوجود الإنساني، بل إنّ هناك حياة أخرى فيما بعد الموت يحاكم فيها الموتى بناء على أعمالهم في الحياة الدنيا. بل إن رب الأرباب (زيوس) يشرف بنفسه على محاكمة الموتى ((وفقاً لما يقال فإن في(الدار الآخرة) زيوس آخر بين الموتى يقاضيهم على آثامهم، ويعقد آخر محاكماتهم)).[4]

وسواء يشير إلى (زيوس العالم الآخر)،و (زيوس ميلخيوس)، أو إلى الإله هاديس باعتباره نظيراً للإله زيوس، فان ما يعنينا هنا في المقام الأول تأكيد وجود

---

[1] – سوفوكليس: أوديب في كولونوس

[2] – يوربيدس: اوريست

[3] – د. منيرة كروان: العالم الآخر في المسرح الإغريقي، ص 73-74.

[4] – ايسخولوس: المستجيرات

محاكمة للموتى في العالم الآخر،يحاسب فيها الموتىعلى أساس أخلاقي فيعاقبون على سلوكهم السيئ تجاه الآلهة وتجاه غيرهم من البشر.

لقد تصور الإغريق أن الموتى يمرون أمام آلهة العالم الآخر وتتم مساءلتهم عما قاموا به في حياتهم من أعمال، ومن بين هذه الآلهة الإيرينيات اللائي تخصصن فيما يبدو إلى النظر في جرائم القتل وسفك الدماء. فمن بَسَطَ يديه وكانتا طاهرتين نظيفتين فلن ينصبَّ عيه غضبهن، بل يقض حياته في العالم الآخر سعيداً آمناً. أما من يخفي يديه خلف ظهره خشية أن يروا الدماء التي تلوثها مثلما يفعل أوريست فسيجد الإيرينيات واقفات له بالمرصاد ليعلن حقيقة جريمته، وينتقمن للدم الذي أريق.

ورغم أنّ ايسخولوس لا يحدد نوع العقاب الذي ينتظر المذنبين في العالم الآخر، فلم يكن ذلك مما لا يعرفه جمهور المسرح. فهو بالقطع يعرف ما يذكره هوميروس من أبشع أنواع العقاب التي يلقاها من الثالوث الشهير: سيزيفوس تانتالوس، وتيتوس. كما كان يعرف كذلك أنواع العقاب التي شارت إليها العقيدة الأورفية مثل حمل الماء في جرار بلا قاع، أو البقاء في الوحل، ولا أدل على سعة معرفة الإغريق بهذه الأنماط من العقاب من إشارات أرستوفانيس إليها في مسرحياته.[1]

4- العلاقة الجدلية بين عالم الأحياء والعالم الآخر

إنَّ دورة الحياة والموت تجمع بين عالمي الأحياء والموتى في تناغم واتساق مذهل، فإنّ الأرض، الأم التي تلد الأشياء جميعاً من إنسان وحيوان ونبات، وتتعهدهم بالعناية والرعاية وتمنحهم القوة، تجمعهم مرة أخرى في رحمها، لتعيد عملية الميلاد مرة ثانية. ويتكرر ذلك الميلاد والحصاد مادامت الحياة مستمرة.

هذا التصور لدورة الحياة يزيل رهبة الموت من نفوس البشر إلى حد كبير، لأن الموت لا يكون حينئذ النهاية المطلقة التي لا شيء بعدها سوى العدم، بل إن الحياة تتجدد مع كل ميلاد جديد .وعندما تنتهي حياة الإنسان تضمه الأرض بين جنباتها حيث يحيا في عالم آخر خاص بالموتى.

ورغم بعد الشّقة بين عالم الأحياء وعالم الموتى، ورغم تصور الإنسان لوجود الكثير من العقبات والأخطار التي تفصل بينهما، فإنّ الخيال الإنساني تخطى كل ذلك

---

[1] – أرستوفانيس: الضفادع.

وأقام علاقة مباشرة بينهما. لذلك عرفت الكثير من الحضارات ما يعرف بقصص النزول، نزول بعض الأحياء، لسببٍ أو آخر، إلى عالم الموتى والعودة مرة أخرى إلى عالمهم سالمين.

وأقدم هذه الرحلات التي حفظتها لنا الوثائق الأدبية هي رحلة الآلهة عشتار زوجة الإله تموز إلى مملكة الموتى، أو عالم اللارجعة كما تشير إليه المصادر السومرية والبابلية.[1]

ويحفل التراث الإغريقي كذلك بقصص نزول بعض الأحياء إلى عالم الظلمات والعودة مرة أخرى إلى النور. ومن أشهر هذه الرحلات، رحلة أوديسيوس التي يصفها هوميروس في الأوديسيا.

وتحكي الأساطير الإغريقية أن الآلهة ديميتر قد قامت بنفس الرحلة للعالم الآخر أثناء بحثها عن ابنتها برسيفوني التي اختطفها الإله هاديس ليتخذها زوجة له.

وكما يحفل التراث الأدبي الإغريقي بقصص نزول بعض الآلهة وبعض البشر إلى عالم الموتى فإن فكرة صعود الموتى إلى عالم الأحياء من الأفكار التي سيطرت على الإغريق، مثلهم في ذلك مثل بعض الشعوب الأخرى.

ومن أشهر الأعياد الإغريقية التي تصور الموتى يصعدون أثنائها للاختلاط بهم ثم العودة ثانية إلى عالمهم، عيد الانثيستيريا.

كان عيد الانثيستيريا يقام سنوياً في اليوم الحادي عشر من شهر أنثيسترون ويستمر لمدة ثلاثة أيام. وكان كل يوم من الأيام الثلاثة يحمل اسماً معيناً، فاليوم الأول "يوم فتح الجرار" والثاني "يوم الأقداح" في حين يسمى الثالث "يوم القدور".

وهناك جرة ضخمة الحجم مدفونة حتى منتصفها تقريباً في الأرض، وبجانبها يقف هرميس، مرشد الموتى، ممسكاً بعصاه. وهناك أيضاً ثلاث أرواح مرسومة وهي خارجة من تلك الجرة، بينما هناك روح أخرى في طريقها إلى الداخل.

ويعتقد السيد C.Kerenyi أنه في اليوم الأول للعيد كانت جرار الخمر المعتقة من العام الماضي تفتح ليشرب الجميع في احتفال صاخب، وكانت رائحة الخمر تجتذب أرواح الموتى فتخرج من عالمها لتأخذ نصيبها وتشرب كما تشاء ويشرف عليها في غدوها ورواحها هرميس، مرشد الموتى.

---

[1] – صموئيل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، ص 102-103.

بينما تؤكد السيدة Harrison أن تلك الجرار لم تكن سوى نوع من الجرار الكبيرة الحجم التي كانت تستخدم لدفن الموتى.

تقول السيدة هاريسون أنه في يوم فتح الجرار كان الأحياء يرفعون الغطاء عن هذه الجرار – القبور، لتخرج منها أرواح الموتى لتشارك في عيد الانثيستيريا ثم تعود إليها مرة أخرى بعد انتهاء الاحتفال وكان يشرف عليها في غدوها ورواحها هرميس، مرشد الموتى.[1] ومن هذين التفسيرين نرى أن عالم الأحياء وعالم الموتى لم يكونا في التصور الإغريقي عالمين منفصلين عن بعضهما: فالأحياء ينزلون إلى عالم الموتى وأرواح الموتى تخرج كلما شاءت لتختلط بالأحياء ثم لتعود إلى عالمها مرة ثانية.

إن الحديث إلى الموتى، وتصويرهم على أنهم مازالوا يحتفظون -رغم موته-، بكافة حواسهم من سمع وبصر وإحساس يتكرر كثيراً خلال المسرحيات. فإن إلكترا تتحدث إلى روح أبيها أغاممنون وكأنه مازال يحتفظ بكافة حواسه، لذلك فإنها تخاطبه مخاطبة الأحياء فهي تطلب منه أن يسمعها، وتكرر الرجاء بعد ذلك أن يسمعها، وأن يستجيب لتوسلاتها. كما تتكرر كلمة "اسمعني" مرات عديدة على لسان الكورس حيث يخاطب أغاممنون، بل إن أعضاء الجوقة يؤمنون أن روح أغاممنون سوف تخرج إليهم، بعد سماع توسلاتهم، كي تساعدهم في الانتقام من قاتليه.[2]

كذلك يتوسل أورستيس إلى الأرض التي تضم أباه، أن تسمح لروحه بالخروج ((ليرى)) صراعه الضروس ضد قاتليه. إن حديث إلكترا وأورستيس إلى روح أغاممنون تعطينا إحساساً قوياً بوجود أغاممنون الفعلي على خشبة المسرح، فهما يذكرانه بالطريقة المهينة التي قُتل بها حتى يستثيرا غضبه وسخطه. ولقد كان أيسخولوس موفقاً للغاية حينما قسم الحديث الموجه إلى روح أغاممنون بين أورستين والكترا، فكل منهما يضغط عليه من ناحية، ويتوالى الضغط بتوالي الحديث حتى يصل إلى قمته عندما تسأله إلكترا عما إذا كان سينهض ويرفع رأسه للرد على تلك الإهانات التي وجهها إليه قاتلوه. فقد رسخ في ذهن الإغريق أن الموتى –رغم موتهم- ليسوا في حالة موات، ولا يقطعون صلتهم بعالم الأحياء مهما باعدت بينهم المسافات والأزمان.

---

[1] – منيرة كروان: العالم الآخر في المسرح الإغريقي، ص 120 – 121.

[2] – يوربيدس: الكستس.

ويتزايد ذلك الاعتقاد في حالة الروح الغاضبة الثائرة لمن مات مقتولاً، فان روحه تبعث باللعنات المدمرة من العالم الآخر إلى عالم الأحياء وتنتقم من قاتلها شر انتقام.[1]

كذلك فإن تقديس الموتى وعبادة الأبطال التي مارسها الإغريق تجمع بين عالمي الأحياء والموتى في تناسق وتناغم، وتؤكد أن كلاً منهما مرتبط بالآخر إلى حد بعيد.

[1] – د. منيرة كروان، العالم الآخر في المسرح الإغريقي، ص 131-132.